حول المعلقات

الأستاذ أبو بكر الحسني

لا يمكن تحديد تعدد المعلقات أو تسميتها كما أنه صعب على الدارسين معرفة السنوات التى أنشدت أو علقت فيها بالضبط ، و لكن الأدباء و الناقدين والباحثين المعاصرين منهم والقدماء اتفقوا على ندرتها وأسلوبها وبلاغتها و روعتها ، أضف إلى ذلك الفطرة التى اتخذها أصحابها لتصوير ما احسوا وشاهدوا وعملوا فى حياتهم اليومية من أعمال الكرم والجود أو التهور و الشجاعة ، أو النزاع و القتال ، أو الوصف و المدح ، أو البغض و الحسد .

أنشد كل شاعر كما أحس و شعر و نظر و بصر ، لا يخاف لومة لائم ولا يتمنى نعمة منعم إلا و هو نظم بقلب نقى وذهن ذكى واحساس مرهف ، بسط أمام الناس معايب الحياة ومحاسنها و ترك لهم مآثر مما يصور حياة قبلية فطرية دون غلو ولامبالاة .

و هذه كانت أيام الجاهلية كما نعرفها ، كل شاعر فى ذلك الزمن كان يعتبر لسان قومه أومدافعاً عن قبيلته التى ينسب إليها ، بمعنى أنه كان يدافع عن أفراد قبيلته فى الخطوب ، و ينشر مكارمهم ، ويشيد بذكرهم فكان للشاعر تأثير قوى يساوى دعاية اليوم ، فيرفع مكانة قبيلته على حساب قبيلة أخرى .

فاذا اشتهرت القصيدة علقت على أستار الكعبة على حد قول بعض الناقدين ، و لذلك سميت مثل هذه القصائد المعلقات أو المذهبات أو السموط على حد قول الآخرين .

ما من شك فى أنه قد اختلف الأدباء و الباحثون فى تسمية المعلقات ، وتعددها فمثلا ، سماها المفضل الضبي المتوفى ١٨٩هـ السموط ، و سماها المعلقات أبو زيد القرشى الأنصارى المتوفى ٢١٦هـ ، و يقول البعض : إن حماد الراوية المتوفى ١٥٤هـ كان أول من سماها بالمعلقات .

ويقول ابن الكلبي المتوفى عام ٢٠٤هـ : إن أول شعر علق على ركن من أركان الكعبة أيام الموسم كان لامرئ القيس ، و يؤيد هذا الرأى ، ابن عبد ربه و جاء فى المزهر ، إنما سميت هذه المعلقات لأن الملك كان إذا استجيدت قصيدة يقول : علقوا لنا هذه لتكون فى خزانته ، و من انكروا تعليقها على الكعبة ، أبو جعفر النحاس المتوفى ٣٣٨هـ ويؤيد هذا الرأى نولدكى Noeldeke المستشرق الألمانى الذى يقول: إن المعلقات معناها المنتخبات و إنما سماها حماد الراوية بهذا الاسم تشبيهاً لها بالقلائد التى تعلق فى النحور . و استدل على ذلك بأن من أسمائها السموط ، و من معانى السموط القلائد ، و شايعه على هذا كليمان هيار الفرنسى .

أما الشيخ الاسكندرى المصرى المتوفى ١٩٣٦م فانه يخالف هذا الرأى أيضاً ، و يقول : إنها كانت تعلق فى الخيام حيث يقيمون ، أما الآلوسى ، فانه كتب فى بلوغ الأرب : إن هذه القصائد علقت فى سوق عكاظ و من أجل ذلك سميت بالمعلقات .

و أما الزيات فانه يرى أن تعليق الصحائف الخطيرة على الكعبة كان سنة فى الجاهلية بقى أثرها فى الاسلام ، فمن ذلك تعليق قريش الصحيفة التى وكدوا فيها على أنفسهم مقاطعة بنى هاشم والمطلب لحمايتهم رسول الله ﷺ حين أجمع على الدعوة ، وتعليق الرشيد لعهده بالخلافة من بعده إلى ولديه الأمين فالمأمون ، فلم لا يكون الأمر كذلك فى هذه القصائد مع ما علمت من تأثير الشعر فيهم و مكانة الشعراء منهم – على أن لهذا الأمر نظائر فى أدب الاغريق فان القصيدة التى قالها بندار زعيم الشعر الغنائى يمدح بها ديا جوراس قد كتبوها بالذهب على جدران معبد أثينا فى لنوس » .

ومهما يكن من أمر ، فان المعلقات قد احتلت مكانا اعتنى به كثير من الأدباء المتقدمين و المتأخرين على السواء ، و ترجمت إلى لغات اجنبية ، ألمانية وفرنسية وانجلازية ، و شرحها الكثيرون ، بعضهم بشئ من التصرف ، و هذا كله يدل على روعتها ، و جمال معانيها و سحر أساليبها ، فان المعلقات تنطق بصراحة و بدون تكلف أو تصنع بمجد العرب ، و طباعهم و عاداتهم و تقاليدهم و أفكارهم .

وقيل إنها سبع قصائد لامرىء القيس، والنابغة الذبيانى وزهير بن أبى سلمى و طرفة بن العبد ، و لبيد ، و عمرو بن كلثوم والأعشى ، و أضاف بعضهم إليها قصيدة عنترة بن شداد و بعضهم قصيدة الحارث بن حلزه حتى أضيفت قصيدة عبيد بن الأبرص و جعلوها العشر قصائد .

امرىء القيس

كان نجديا فى الأصل لأنه ولد فيها و هو من سلالة الملوك ، أحب اللهو والترف كما كان شأن أولاد الملوك و السلاطين فى كل عصر و مصر ، يشرب الخمر و يغازل النساء ، يطوف أحياء العرب مع جماعة من أمثاله ، و لم يلتفت إلى نصح ناصح و لم يقبل شريعة أخلاق ، فطرده أبوه لانحرافه فى سلوكه و لكن عندما جاء نعى أبيه و قد قتله واحد من بنى أسد ، ثار و اشتد غضبه ، و قال :

ضيعنى أبى صغيرا ، و حملنى دمه كبيرا ، لاصحو اليوم و لا سكر غدا ، اليوم خمر ، و غدا أمر .

أما حكاية موته ، فيختلف فيها الرواة ، قتل على حد بعض الرواة ومات على حد قول الآخرين ، و لكنه قد اتفق الجميع على مكانته فى الشعر و ندرة تعابيره ، وجدة معانيه و ابتكار أساليبه .

فمثلا يقول :

أغرك منى أن حبك قاتلى	و أنك مهما تأمرى القلب يفعل
و ما ذرفت عيناك إلا لتضربى	بسهميك فى أعشار قلب مقتل
فان كنت قد ساءتك منى خليقة	فسلى ثيابى عن ثيابك تنسل
فلو أننى أسعى لأدنى معيشة	كفانى و لم أطلب قليل من المال
و لكنما أسعى لمجد مؤثل	و قد يدرك المجد المؤثل أمثالى

وفى معلقته التى تبدأ بـ :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل	بسقط اللوى بين الدخول فحومل

يصف فيها الفرس :

درير كخذروف الوليد أمره	تتابع كفيه بخيط موصل

له أيطلا ظبى ، وساقا نعامـــة وإرخاء سرحان ، وتقريب تتفل

ضليع إذا استدبرته سد فرجه بضاف فويق الأرض ليس بأعزل

مكر مفر مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل

و يقول فى الغزل :

و بيضة خدر لا يرام خباؤها تمتعت من لهو بها غير معجل

تجاوزت أحراساً إليها و معشرا على حراصاً لو يسرون مقتلى

فقالت : يمين الله مالك حيلة و ما أن أرى عنك الغواية تنجلى

و يصف الليل :

وليل كموج البحر أرخى سدوله على بأنواع الهموم ليبتلى

فقلت له لما تمطى بصلبه و أردف أعجازاً وناء بكلكل

إلا أيها الليل الطويل ألا انجل بصبح و ما الاصباح منك بأمثل

فى الحقيقة : كان امرؤ القيس ينظم الشعر منذ طفولته و هو أول من وقف على الأطلال وبكى على الديار و شبب بالنساء ، ففى أشعاره نرى صورة واضحة من حياته و عاداته و من خلال عاداته و خلقه نجد صورة كاملة مما كان يدور حوله فى ذلك العصر .